كيف كنت هنا طوال هذا العمر دون أن أراك؟

أثناء عودتهما الأخيرة من الإسكندرية إلى البلد ـ وكانا يستقلان كعادتهما الدرجة الثالثة بالقطار ـ قال فريد هنيدى لرأفت إبراهيم:

ـ «كلها أسابيع وتستلم وظيفتك أيها الزراعى المجرب.»

فهم رأفت أن ما يقصده فريد هو الإشارة إلى عمله الصيفى مع الريس عفيفى فى غيط المصلحة فتكدرت سحنته عندما تذكر هذا الرجل المسكين الذى انهارت عائلته بلمسة من لمسات أبناء النحال، فقال لفريد:

ـ «مسكين.. تحملنى نفرًا متواضعًا بين عماله، ولم أهنأ بمباركته لى كمهندس»

ـ «لم يهنأ بأشياء كثيرة خاصة ابنته خميسة التى تمكنت من دخول كلية الحقوق»

ـ «أما زال السيد النحال يحوم حولها؟»

ـ «هو يحوم حولها حينًا وحول فوزية أحيانًا.. أمير قنوع لا يحوم إلا حول فوزية»

ـ «قابلت (نجيب النجار ومحمد ناجى) عند شباك التذاكر.. يسلمان عليك.»

ـ «ما أخبارهما؟»

ـ «يتقبلان تأخرهما عنا بعامين بكل بساطة، ولكنهما حتى الآن لم يتقبلا فكرة وصول أمير النحال إلى نائب رئيس اتحاد طلاب الجمهورية»

ـ «أنا قلت من قبل أن ولدىْ النحال سيتسلقان إلى أعلى المناصب.. صدقونى..».

توقف القطار فى محطته الأولى، هبط ركاب، وصعد آخرون، وكان من بين الصعود فتاتان إحداهما ذات وجه وقوام جميلين، لاحظ رأفت أن صديقه تململ فى جلسته لفرط

جمال الفتاة، وبعد حين مال فريد إليه هامسًا:

ـ «من المذهل أن تجد مثل هذا الوجه وتلك العيون فى إحدى عربات الدرجة الثالثة بقطار الأقاليم ولا تجدها على شاشة السينما..»

ابتسم رأفت بإشعار مقصود:

ـ «حتى تعرف قيمة الدرجة الثالثة التى تشاركنى ركوبها رغمًا عنك..»

ولما وقف فريد فاردًا طوله العملاق، وجسده الهائل المتناسق، عرف رأفت أن صديقه يمر بلحظة استعراضية مدعيًا أنه فى طريقه إلى دورة المياة، وراح يتبختر فى الممر مركزًا نظرات ناطقة بالغزل إلى الفتاة التى بادلته بتسامة تضامنية ثم لاذت بالحياء أمام زميلتها وعندما عاد إلى الجلوس همس مرة أخرى لرأفت:

ـ «لم تقابلنى فى حياتى عينان بجمال عينيها»

توقف القطار فى المحطة التالية، وهبط ركاب وصعد آخرون، وامتلأ الممر الطويل ببشر يبحثون عن مقاعدهم.. جاءت من أقصى العربة عجوز تسعى باحثة عن مقعد لها.. وظلت تقترب حتى وقع بصرها على ذلك الشاب الفارغ الراسخ فوق كرسيه كجبل صغير وله صدر مفرود يحمل ثديين نافرين ويرتدى قميصًا أبيض بنصف كم محبوكًا على زنده الأسطوانى اللامع.

توقفت أمامه وحملقت فيه .. ثم شهقت، سارت خطوة، توقفت مرة أخرى، مصمصت شفتيها، مضت حتى تخطته، ظنها فريد قد ذهبت إلى حال سبيلها، ولما تابعها بنظراته وجدها تلتفت خلفها لتمعن النظر فيه بتعجب واستغراب.

عاد فريد إلى نفسه وانكفأ عليها وهمس إلى رأفت:

ـ «أحس برهق عجيب تملّك جسدى وكأنه يذوب»

لم يكن رأفت قد أعطى اهتمامه للحوار الصامت بين عينى العجوز وبنيان فريد، فسأله:

ـ «ما الذى حل بك هكذا فجأة؟»

عاد فريد إلى الهمس بصوت موجوع:

ـ «عينا تلك العجوز»

ـ «ماذا بها؟»

ـ «كأنها أرسلت منهما شرارة اخترقت جسدى»

ـ «لا تضع فى بالك.. واذكر ربك يا بطل»

ـ «لاإله إلا الله»

هذا هو حادث القطار كما قال عنه رأفت إبراهيم فيما بعد.. عينان ساحرتان لفتاة جميلة.. وعينان صفراوان مجعدتان لعجوز آثمة القلب.. الأولى أبهجته، والثانية فتكت به..

وبعده جاء حادث البلد فى اليوم التالى لوصول البطل فريد هنيدى إلى منزله.

صراخ عال يشق عنان السماء .. وأناس يهرولون إلى مصدر الصراخ.. بهم من يقول «**إن هناك حريقًا ناحية دار الهنادوة**»، وهناك من يقول «**يبدو أنه قد مات منهم أحد**»

وفى الساحة الواسعة أمام منزل أولاد هنيدى اختلطت الجموع وتزاحمت حول حادثة لن يطردها الزمن من مخيلتهم.. جمل دار هنيدى العملاق يقبض بفكه الرهيب على ذراع ولدهم فريد.

الجمل الغاضب لا يعبأ بالعصى التى تنهال عليه، لا يفك قبضته عن الذراع، يمعن فى الإمساك بها، النداءات الهلعة تختلط ببعضها، ثم عادت فاختلطت بالدموع: «اقتلوه.. البطل يموت.. ارشقوا سيخ الحديد هذا فى عينية.. الجمل به جنون.. يا راضى خذ أمك بعيدًا.. أخى يموت.. يا ولدييييى.. ولدى يموووووووووت.. احمل أمك بعيدًا يا محمود، تصرفوا فى بندقية يا خلق.. الذراع تهدل يا ناس لقد هشمه الجمل المجنون.. فريد فقد الوعى.. فريد يموت.. ما هذا الزبد الأبيض الذى يسيل من فيه؟. أمسكوا به.. الجمل يهرول به، يجرجره، أوقفوه.. أوقفوه.. هاتوا حبلًا.. قيدوه..»

وفجأة لفظه الجمل وألقى به أرضًا.. ظنوا وهو ملقى بلا حراك أنه قد مات... ومن جانب فمه تسرب نفس خفيف باعثًا زبدًا أبيض، فهتف راضى:

«**به الروح .. به الروح، إسعاف.. إسعاف.. اجر إلى دوار العمدة اطلبوا الإسعاف**»

لم يقو رأفت أن يحمل صديقه معهم، أو أن ينظر فى وجهه الغائب عن الدنيا بكل وسامته.. وصحا على صراخ عربة الإسعاف وهى تفرّ به من قلب الزحام وراح بعد

ساعات يتلقى أخباره عبر من يعودون من المدينه:

ـ «أفاقته الإسعافات.. أدخلوه إلى غرفة العمليات.. أجروا له عملية.. وضعوا له جبيرة.. مازال يئن.. يقاومون معاناته ببعض المسكنات..»

ولما زاره بالمستشفى تاه منه الكلام فوقف بعيدًا يتأمل رقدته القسرية بعين تملؤها الدموع . بطل مطروح بلا حراك ملفوف بأغطية خفيفة وزنده العملاق همدان على صدره تحيطه جبيرة بيضاء.

ـ «تعال يا رأفت..»

تقدم إليه عبر مسافة يشغلها الجالسون حوله على مقاعد أو يفترشون أرض الغرفة.. أمه المسكينة.. راضى ومحمود.. على الصغير ابن محمود.. زوجة راضى.. وآخرون.. هتفت أمه..

ـ «أرأيت ما حدث للبطل يا رأفت»

وانفجرت فى نهنهة اختلطت فيها دموعها بدموع رأفت وهو يميل بقبلة على خد فريد، ثم اختلطت بعد هنيهة بدموعه عندما أخذه بكاء مكتوم.

* * *

قال لهم وهو يصرخ من الألم وحوله الأطباء قليلو الحيلة «ماذا فعلتم بى.. فكوا هذه الجبيرة الملعونة.. أسفلها نار تخترق روحى»

ترددوا وتبادلوا النظرات التائهة، فصاح بهم:

ـ «لقد سمعت عظامى تتكسر كالزجاج وأسنان الجمل تجرشها.. أرجوكم..»

ثم التفت إلى أخويه: راضى ومحمود، وقال:

ـ «ابحثا لى عن مستشفى أخرى أو انقلونى إلى مصر.. سأضيع بين أيديكم.. أين رأفت ابعثا به إلى..»

وجاء رأفت، فناداه قبل أن يصافحه بيسراه:

ـ «افعل شيئًا يا رأفت.. اتصل باتحاد كمال الأجسام، اتصل باتحاد الطلاب.. اتصل بوزير الصحة.. الجبس فى يدى تشرب بالدماء.. نار تشتعل فى عظامى.»

ووقف رأفت المسكين حائرًا فهو لا يعرف أين هذا الاتحاد المعنى بأبطال كمال الأجسام..

ولا يعرف من اتحاد الطلاب سوى هذا الماكر أمير النحال، أما وزير الصحة فأين له بمقابلته وتحت أى عنوان.. ولو كان لا يعرف فى كل هؤلاء سوى ابن النحال، فكيف يمكنه أن يقابله؟!.. لا أحد يعرف له عنوانًا.. الدراسة انتهت.. والمدينة الجامعية قد أغلقت أبوابها، ومع هذا فقد سعى إلى القاهرة ملقيًا بنفسه فى أول عربة أجرة وجدها أمامه.. وهمس لنفسه..

ـ «لا أعرف فى العاصمة إلاها.. خميسة..»

وفى الفندق عرف منها أن أميرًا زارها مرتين، ولم يترك لنفسه عنوانًا أو تليفونًا.

ـ «الوقت يسرقنا يا خميسة.. المستشفى لدينا فى المدينة تعبانة.. قد ينتهى الأمر ببتر ذراع فريد.»

ـ «اذهب إلى الجامعة فقد تستدل عليه هناك، إن لم تجده اترك له رسالة، واترك له تليفونى هنا بالفندق وانتظر اتصاله بك.. يمكنك أن تقيم هنا لعدة أيام..»

لم يجده بمكتب الاتحاد.. قالوا له إنه يأتى بين الحين والحين..

ومكث بالفندق ضيفًا على خميسة والسيدة مارى يومين جاءهم فى آخرهما الاتصال المنتظر من أمير، تعرف على الحادث الذى ألم بغريمه فريد هنيدى وخاض معهما حوارًا طويلًا.. بعضه مع رأفت وبعضه مع خميسة.. ولما وضع رأفت السماعة كآخر من تحدث معه قال بتأفف:

ـ «لقد راهّنا على شخص خاسر.. نذل.. وبلا قلب..» أيدته خميسة بهزة من رأسها:

ـ «يتعلل بأن فريدًا لم يعد طالبًا حتى يتدخل لصالحه باسم الاتحاد.. ألم تلاحظ أنه كان محاطًا بأصوات نسائية..؟»

ـ «وكان يلهو مع بعضهن أثناء المكالمة دون خجل.»

ـ «يبدو أنه فى كافيتريا أو كازينو.. بل لعله فى خمارة»

ـ «إذن، سأعود أنا.. لا نفع من وجودى هنا..»

وصل إلى البلد مساء اليوم الثالث، ذهب رأسًا إلى دار الهنادوة، قابله راضى هنيدى برأس منكس وقلب مكسور وبقايا دموع لم تجف.

ـ «ذراعه، بتروه... أين كنت؟.. كان ينادى عليك طوال الوقت»

لم يتمكن من الرد عليه بعد أن تشبثت قبضة ما بحنجرته وقفل عائدًا يتخبط فى

الظلام، ولم ترحمه القبضة المتشبثة به إلا بعد أن امتلأت غرفته بالبكاء وغرقت وسادته بالدموع.. وصار باستطاعته أن يعلو صوته بالكلام، فهتف:

ـ «أنت تعرفها يا فريد.. العين التى أصابتك.. العين التى جاءتك تسعى من آخر القطار»

* * *

قبل أن يسافر إلى الإسكندرية للاطلاع على نتيجة البكالوريوس ذهب رأفت إلى فريد ليبلغه بهذا المشوار، لحظتها ذهب فريد ببصره بعيدًا وأخفى عينيه حتى يوارى دموعه، ثم ردد:

ـ «لا تبحث عن نتيجتى؛ فلم يعد لها قيمة»

فقال رأفت بقلب مكسور:

ـ «كيف لا نجنى حصاد أربع سنوات من العمل والتحصيل؟»

ـ «هذا لمن يرغبون مواصلة الحياة»

ـ «لا عودة إلى هذه النغمة، ولن أسمح لك بمواصلة نزف هذا اليأس أيها البطل..»

ـ «أرجوك لا تنادنى بهذا اللقب، لا يوجد بطل بذراع واحد..»

ـ «لا تقل هذا يا فريد.. البطولة الحقيقية.....»

قاطعه مسرعًا:

ـ «لن نتفق يا رأفت.. لا تسرب عزاءك بهذا الإصرار.. فأنت تتحدث مع رجل قد مات»

ـ «إنه قدرك يا فريد..»

ـ «سمه ما شئت.. إنما الأمر بالنسبة لى أن ذراعى المذهل قد التهمته القطط والكلاب من قمامة المستشفى.. ليتهم دفنونى معه»

وراح يبكى، فاندفعت أمه إلى الغرفة وتبعها راضى ثم محمود وزوجاتهما، وانعقدت حلقة بكاء جديدة ينجرفون كلهم إليها كلما تذكر فريد مأساته وتحسس ذراعه فلم يجده.

وفجأة صرخ بهم:

«ارفعوا هذه الصور.. ارفعوها..»

كانت كلها صوره المؤطرة التى تزين حوائط غرفته بجوار صورة بطله الأثير عبد الحميد الجندى.. أضواء تنسكب على عضلات فذة.. وابتسامة رائعة تنضح بالفرحة وهو

يقدم ساعده المفتول إلى الناظرين.. ثم وهو يقدم لهم صدره المطرز بموسيقى تنساب مدهشة فوق العضلات الصخرية.

وكان راضى يرفع البراويز بعين دامعة استجابة لطلب أخيه المهتاج وهو يردد:

ـ «عين وأصابتك يا فريد، عين وأصابتك يا أخى»

ولم يلتفت البطل الجريح إلى كلمات أخيه، وكأنه نسى الرصاصة ذات الشهقة التى صوبتها إليه عجوز القطار ، وإنما تذكر أنه ضحية عنفه عندما ضرب الولد على ابن أخيه راضى.. على صديق الجمل نال علقته أمام جمله لأنه اهتم بإطعامه ولم يهتم بشراء الفاكهة لعمه فريد من دكان فرج حمدان. كان الصبى محاصرًا فى الحظيرة يتلقى الضرب بعصا لاهبة ولا يملك فرارًا ولما اقترب فريد من الجمل والولد يناوره دفعه الجمل برأسه وكانت هذه إشارة لغضب ألم بالحيوان من أجل صديقه، لم تصل الإشارة إلى البطل الغاضب من أجل فاكهته، ولذا فقد استدار بنفس عصاه إلى الجمل فأمطره بها. وخرج من الحظيرة لاهثًا بعد أن أدب صديقين بعصا واحدة: حيوان وإنسان.

ويتذكر رأفت إبراهيم ما سرده له فريد من وصف لانتقام الجمل: «**كنت أقف أمام باب الدار أتحدث مع أخى محمود، وكان على بن راضى المضروب توًّا يتخطى عتبة الدار ممسكًا بحبل الجمل وهما فى طريقهما إلى الحقل، وفجأة غشينى ظل ضخم لرأس كبير ملأ الفراغ حولى بظلام قاتم وشعرت بدفعة قوية ألقتنى إلى الحائط.. رفعت يدى مذعورًا، فلقمها الجمل بين فكيه وضغط عليها وسحبنى بها وأنا أصيح من الألم حتى ظننت أن الجمل سيقضمها ويفصلها عن جسدى ثم يفر بها، وغبت عنى الوعى ولم أفق إلا فى المستشفى.**»

ومن نومه الطويل.. الطويل خلف بابه المغلق دوما، ومن حالته الجديدة التى هجر بها كلّ من حوله بمن فيهم صحبة المصطبة وشركاء الأرانب.. أيقظته أمه وقالت له بابتسامة ذابلة:

ـ «**رأفت كان هنا.. لم نشأ أن نوقظك.. قال لنا إنك أخذت الشهادة ونجحت..**»

عبس وجهه.. ولم ينطق بكلمة.. وعاد إلى رقدته بعين مفتوحة زائغة النظرات، ولما وجدت أمه أنه لن يتكلم آثرت ألا تفتح بابًا جديدًا للصياح، وخرجت متثاقلة وهى تردد كلمات تعمدت أن تصل إلى ولدها:

ـ «الحمد لله أنى منعت زوجة محمود من أن تطلق زغرودة.. لم يعد لنا شأن بالفرحة.. فرحتنا أخذها الجمل الملعون وذهب فى داهية».

* * *

تذكر فريد جملهم الذى وصفته أمه الآن بالملعون، وكان راضى ومحمود قد باعاه إلى فلاح فى بلدة مجاورة، وصلته أنباء أن الجمل لا يأكل ولا يشرب ولا ينهض من رقدته، ثم عرف أن على ابن راضى ذهب مع الرجل فأطعم الجمل عنده وسقاه، ثم عاد باكيًا لأنهم حرموه من صديقه الذى أحسن استقباله على مرأى من أصحابه الجدد..

واقشعر بدنه ذات مرة وهو يسمع عليًّا الصغير يقول لأمه: «لو كان عمى ضرب الجمل فقط لما انتقم منه الجمل، ولكنه انتقم لى، فعمى ألهب ظهرى بالعصا أمامه».. وتساءل النائم قهرًا والمختلى بنفسه بؤسًا:

ـ «ولماذا فعلت ذلك؟ لماذا أقدم الأذى وبهذه القسوة لصبى صغير وحيوان أعجم دفعة واحدة؟ لماذا؟.. هل لأن طعامى من الفاكهة غاب عنى؟... هل صرت مفجوعًا وأنانيًّا وقاسيًا وشرها إلى هذه الدرجة؟.. ماذا بك يا فريد؟ هل صرت أعمى؟ فمن منا الحيوان أنا أم الجمل؟.. من منا الذى فقد صبره.. أنا أم الجمل..؟.. من منا أولى بالموت أنا.. أم الجمل؟»

* * *

نادى على الصبى «على» وهمس له:

ـ «خذنى إلى الجمل ولا تخبر أحدًا بذلك»

واقشعر جسد الرجل صاحب الجمل الجديد وهو يشاهد البطل فريد هنيدى يقف صامتا حزينا أمام جمله الذى بدا كأنما يبادله الصمت والحزن.

وتلمست نظرات الرجل المختلسة كم الجلباب الفارغ من الذراع الذى طار عن موضعه وقد بدا له الكُم متهدلًا يؤرجحه الهواء رغم الجاكت المطروح على كتفيه لمجرد ستر عاهته الجديدة.

ولما طرح فريد الجاكت عن كتفيه، وأمسك بكم الجلباب الفارغ بيسراه لم يصدق الرجل المذهول أن ما يفعله فريد الآن هو أن يطلع الجمل على سوء فعلته، ثم ازداد ذهوله

عندما وجده يتحدث معه:

«أنت قتلتنى.. ودمرت حياتى»

«كيف تفعل بى هذا أيها الظالم الجبار؟»

«أرأيت ما فعلته بى؟»

«أنت انتقمت منى.. بأكثر مما يجب أن يكون الانتقام.. أنت..»

اقترب منه الرجل بفاه مشدوه:

ـ «أجئت هذه المسافة أيها البطل لتتحدث مع حيوان أعجم؟»

رماه بنظرة احتجاج وتهيأ للانصراف.. فجذبه الرجل:

ـ «اجلس.. اجلس أريد أن أتحدث معك.. راضى ومحمود ضحكا علىّ وابتاعانى هذه البلوة»

لم يكن لديه قدرة الخوض فى حديث آخر.. توسل إلى الرجل بنظره أن يتركه فى حاله، ومضى صامتًا وقد حبس دموعه دون أن تتوقف أنات قلبه الجريح..

ولم يدر كل البشر الذين حوله أن الجمل كان يشارك بطله الجريح وضحيته الموجوع فريد هنيدى صمته الحزين وأنات قلبه الجريح.. فالجمل المنتقم غرقت جوارحه فى صمت أعجمى استكانت فى ورطة الخرس بعيدًا عن طلاقة البوح:

«إذن، فأنت لم تمت.. وجئت تلومنى فى سجنى الجديد عند هذا الرجل الذى صار يكرهنى.. هو لا يعلم أننى صرت مسجونًا داخل نفسى.. فهل كانت دموعك من أجل بلواى أم بلوانينا معًا؟ لا أدرى لماذا انتقمت منك بهذه السرعة.. حاولت كبح جماح غضبى.. حاولت التمسك بصبرى لولا هذه المرأة العجوز التى أرسلت إلى عينيها الناصحتين تحذرنى مما ستفعله بصديقى على ونواياك فى تقديم المزيد من الإيذاء إلى هذا الولد الطيب الحنون.. فيا ليتنى ما صدقتها»

وجاء المشترى المخدوع للمرة الثانية إلى راضى ومحمود فى محاولة جديدة لإعادة جملهما إليهما فحكى لهما عن الزيارة الدامعة التى قام بها بطلهما فريد إلى الجمل.

تبادلا نظرات الذهول وتذكرا ما طلبه منهما أن يعيدا شراء الجمل، وتذكرا ما قالاه له من أنهما إذا فعلا ذلك فسوف يفهم الناس أنهما باعا الجمل لعيب فيه، وإذا أعاداه فسوف

يفهمون أنهما فعلا ذلك لعيب فيهما.. وأنهما فى حقيقة الأمر تخلصا منه حتى لايتذكرا جريمته كلما شاهدوه أمامهما.

* * *

وعندما اقتحم الرجل منزل آل هنيدى بعد أيام مصحوبًا بالهلع والصياح لم يستطيعوا أن يجيبوه على سؤاله:

ـ «الجمل..؟ أين الجمل؟.. هل جاءكم إلى هنا؟.. لقد اختفى منذ الصباح»

وكان معه بعض أهله.. يسألون.. ويستفسرون، إلا واحدًا منهم راح يؤكد لهم:

ـ «يا جماعه.. يا جماعه قلت لكم وفروا مجهودكم، الجمل الأن يرقد فى قاع بحر «ميت يزيد»، هناك ناس أقسموا لى أنهم شاهدوه يلقى بنفسه فى البحر، وظل يظهر ويختفى حتى ابتلعته المياه»

وظللهم الصمت المريب، واختلطت أفكارهم بلغط الناس فى الشارع.. الناس الذين يستعيدون قصة الجمل.. لكنهم لم يلتفتوا إلى نهنهة بكاء لا تصل إلى سمعهم.. نهنهة يصدرها «على» الصغير الممسك بحسك الجمل عند مرقده القديم فى الحظيرة ذارفًا دموع الوداع والحسرة..

وخلف بابه المغلق كان البطل المهاجر إلى نفسه المحزونة يصدر هو الآخر نهنهة بكاء مكتومة إثر ما وصله من نبأ الجمل الذى انتحر فى إقدام جسور قال عنه:

«إنه كان يحب أن يكون قرارى أنا، ولكنى جبان فلم تطاوعنى نفسى أن أتخلص منها فى لحظات الكرب والكدر والاستسلام التى مازالت تغمرنى وتستولى على»

بعد انفضاض الجمع الهائج وهدوء السحة من صاحب الجمل وأهله وكل الذين أسرعوا خلفه للفرجة والاستماع.. ثاب إلى نفسه، وراح يتأمل حوائط غرفته العارية من صوره التى كانت تملؤها.. فوقع بصره على الرف الذى لم يكن يحمل صورة ما.. إذن، فما هذا الكتاب الذى عليه؟.. نهض متثاقلاً.. وشب على أطراف أصابعه.. جاء بالكتاب.. نفخ التراب من فوقه: إنه المصحف الشريف فهتف:

«ياآه .. كيف كنت هنا طوال هذا العمر دون أن أراك؟»